فنون الأدب

منابعها وبواعثها

للأستاذ عبد الحميد حسن

للعقول جولات فى شؤون الحياة ، وللنفوس تموجات تنم عن دخائلها ، وللفطرة الإنسانية نزوع إلى تصوير ألوان الحياة ، وميل إلى الإفصاح عما يخالج النفس ؛ مما ينشأ عن الدوافع الباطنة ، أو عن المؤثرات التى تنجم عن البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ،

فهذا الميدان الفسيح الأرجاء من التجارب الفردية ومظاهر المجتمع ، إذا ما كانت اللغة وسيلة لرسمه وأداة للتعبير عنه — هو ميدان الأدب ، وما ينتجه العقل فى هذا ويصوغه فى أسلوب جيد من النثر أو النظم هو الأدب .

فالأدب: هو الخالص الصافى من تجارب الحياة، والواضح الصادق من ألوان النفوس؛ يصاغ فى صورة رائعة من الأساليب الشعرية أو النثرية، فيكون للنفوس خير غذاء ، وللعقول صاقلا ، وللهمم شاحذا ، وللميول الإنسانية أقوى حافز إلى كريم الشيم .

وهو من الفنون الجميلة التى تزدهر بها الحياة وتنشط النفوس ، وإن أعلام البيان فى الأمم هم مصابيح هديها ، وضوء حياتها ، ومرآة ماضيها وحاضرها ، وهم الذين يوقظون نبيل العواطف، ويحفزون الهمم إلى جلائل الأعمال ويصورون

مايجول بالنفوس من خواطر ، وماتكن القلوب من ميول طامحة أو جامحة، معوجة أو قويمة .

ولكل أمة راقية أدب مأثور ، تدل ألوانه وضروبه على حظها من الثقافة ونصيبها من الحياة العقلية والاجتماعيةوالخلقية ، وتنم اتجاهاتهعن طبعها وروحها العامة . ولاتزال آداب الأمم الراقية من المناهل العذبة التى ترتشف منهاالعقول رحيقا سائغا .

وحظ البيئات والشعوب والأفراد من الأدب يختلف صعودا وهبوطاً وقوة وضعفا ، ونباهة وخمولا ، فليست جميع البيئات موطنا خصبا للأدب وللأدباء وللإنتاج الأدبى ، وليست جميع الشعوب ذات حظ من القرائح الخصبة . وللأمم فى حياتها مراحل نهوض وانتعاش ، وعصور ركود وفتور عقلى وحيوى ، والأدب يسير فى الغالب تبعا لذلك ؛ فهو وليد البيئة، ونتيجة القرائح ، وارتباطه وثيق بثقافة الأمة وانتعاش حياتها ، وماتتمتع به من حرية ورخاء ، وبما لأفرادها من خلال تميل بهم إلى الطموح أو إلى الاستسلام .

وسنعرض فى كلمتنا إلى أثر العوامل المختلفةفى فنون الأدب لنعرف البواعث التى تتجه بالأديب إلى فن من فنون القول ، ولنتبين الأسباب التى تجعله يجيد فى أحد فنون البيان،ولنتعرف المعين الذى ينبع منه هذا ، أمن داخل النفس أم بإملاء من البيئة وبوحى من العوامل الخارجية ؟ وهل كان ذلك تقليدا أو ابتكارا ، طبعا أو تكلفا ؟

سنمر بهذه العوامل والبواعث لنعرف الصلة بين الإنتاج الأدبى ومنابعه؛ ليكون لنا من هذا عون على النقد والموازنة بين مختلف القول ومتباين المنازع.

***

لاجدال فى أن الأدب صورة للنفس وللمجتمع ، وأثر من آثارهما ، أو أنه يجب أن يكون كذلك ، إلا إذا افترضنا أن الأديب سيتجرد عن سجيته

ويتلون بغير شيمته ، ويتغلب تطبعه على طبعه ، ويخرج على قوانين المجتمع فلا يلبي دواعيها ، ولا يستجيب لمؤثراتها.

ولا نقول : إن هذا الافتراض بعيد الحدوث ، بل إن الواقع يحتم علينا التسليم به ، فإن من الكتاب والشعراء فريقا يقولون بألسنتهم مافى نفوس غيرهم ، وينسجون المعانى على منوال من سبقهم أو عاصرهم ، وينتحلون من الأخيلة والأساليب ما لافضل لهم فيه إلا النقل والتغيير والتسطير .

على أن هذا لاينافى أن الأدب إنما هو صورة لنفس بشرية ولبيئة إنسانية ، وإن كانت هذه النفس هى نفس غير نفس القائل ، وهذه البيئة قد تخيرت من لم يتأثر بها مستودعا لإيحائها . بل إن هذا النقل والأساليب التقليدية إذا فشت فى عصر كانت ظاهرة تدل على نفوس أدبائه وكتابه وشعرائه ، فإن قاعدة ارتباط الأدب بالفرد وبالمجتمع قاعدة لاينقضها مايتفشى الأدب من تصنع فى أساليبه وتقليد فى صوره ومعانيه ، يبعده عن التعبير الصادق عن دخائل النفوس ، ومايلم بها من مؤثرات .

فالبواعث التى تنشأ عنها فنون الأدب ترجع إلى الفرد وإلى البيئة بنوعيها: الطبيعية والاجتماعية .

***

أما الفرد فتتنازعه عوامل من سرور وألم ، وهدوء وغضب ، وجموح وطموح ، أورضا واستسلام ، وقد يكون نابها أو خاملا ، مثقفا أو جاهلا ، ولكل هذا أثره فى إنتاجه العقلى ، وفى تأثره أو تأثيره فيما حوله ، فإنا إذا بحثنا فى أعماق النفس الإنسانية نجد ذلك القبس الروحانى الذى تختلف درجات إشعاعه وقوة إضاءته ، وتلمح هـذه النزعات المتوجة التى تهدأ حينا أو دائما ، وتضطرم آونة أو تكون دائبة الصراع ، ونجد العواطف نبيلها ودنيها ، وتتبين

دخائل العقل ومدى ثقافته ، ونرى رضىّ الأخلاق وعنيفها ، ونلمس الإرادة الطامحة والقابعة،والنفس الراغبة والراهبة . نجد كل هذه الألوان النفسية التى تندرج تحت المظاهر المعروفة فى علم النفس وهى:الفكر والوجدان والإرادة . ولكل مظهر من هذه أنواع من الأدب تنشأ عنه :

(١) فالفكر تنشأ عنه فنون الأدب ذات الصبغةالفلسفية والحكموالمواعظ والأمثال، وقد تكون الثقافة عونافى هذا الصدد . وقد يكون للفطرة السليمة وللنظرات الإنسانية الصادقة خطرها وأثرها ، ولنا فى الآثار الأدبية للعرب فى العصر الجاهلى أعظم شاهد ، وإن للأعراب الذين وفدوا على الخلفاء والحكام من روائع البداهة وصائب الآراء وبالغ الحكم—مايدل على أن الفطرة إذا صفت كان لها من الإلهام الذى توحى به مظاهر الكون ، مالا نظفر به فى كتاب مصنوع،أو منهج دراسى مخطوط أو مطبوع .

(٢) والإرادة تنشأ عنها أنواع الأدب ذات الصلة بالرغبة والرهبة والشجاعة والجبن : كالحماسة والاستجداء والاعتذار وكألوان القول الممزوجة بالملق والذلة .

وقد يشاب بعض ماينشأ عن ضعف النفس من هذه الأنواع بعزة كامنة وقوة تبدو من وراء ستار ، وقد نلمح فى الأدب قوة نفس ظاهرة متكلفة،ولكن الضعف والملق يظهران من خلالها ، وهذا إنما يكون فى العصور التى يغمرها التصنع والتكلف فى مظاهر الحياة،فيبعد أدباؤها عن صريح القول،ويلجئون إلى المداجاة فلا يكون أدبهم فطريا سليما .

(٣) والوجدان هو الوتر الحساس والمورد العذب لكثير من فنون الأدب، ومنه تنشعب العواطف النبيلة أو الوضيعة ، وعنه تنشأ المعانى الموسيقية والأغراض المرحة كالغزل والنسيب والتشبيب والمجون والفكاهات والشعر الغنائى ومايتصل بذلك . ويزداد هذا الجانب نشاطا بما فى البيئة من عوامل

السرور، ومظاهر البهجة، وبانتشار الأمن والرخاء. على أن للتكوين الفطري في هذا شأنا؛ فمن الناس من يغلب عليهم الاكتئاب والتشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار مظلم، ومنهم من يميل إلى مباهج الحياة ويرى الأشياء من نواحيها السارة المرحة، ومنهم الحاد المزاج السريع الانفعال، ومنهم الثابت الجأش الهادئ الجنان.

(٤) ومن البواعث ذات الشأن في فنون الأدب الخيال؛ فقد يمتزج بالتفكير وبالوجدان فيكون له أثر في ألوان القول، وشأن في بعض فنون الأدب: كالأدب التمثيلي الذي تمتزج فيه عناصر الموسيقى والغناء، وكالوصف المقرون بدقيق التشبيه ورائع الاستعارات، وكالقصص والروايات، وكالتمدح بالجمال الطبيعي أو النفسي، وينشأ عن ذلك أيضا الفخر والعجب والرثاء وغير ذلك.

***

يتجلى لنا مما تقدم أن للجو النفسي ضروبا من الألوان، وأنواعا من التقلبات، وهو في هذا أشبه بالجو الطبيعي في اختلافه — على مرور أيام العام — حرارة وبرودة، وجفافا ورطوبة، فتارة يهب النسيم العليل، وأخرى تعصف الأعاصير، وطورا يمتزج الهواء بشذا الورد والرياحين فينعش القلوب، وطورا آخر ينقلب سموما يلفح الوجوه.

ولكل هذه التقلبات أسبابها التي ترجع إلى اختلاف الفصول، وإلى طبيعة البلاد، وما قد يكون فيها من جبال وهضاب وبحار وأنهار وإلى خصبها أو جدبها، وتلبد السماء أو صفائها، كما أن لاختلاف النفوس في طبائعها أسبابا ترجع إلى الفطرة أو النشأة أو البيئة أو غير ذلك.

***

ومن العوامل المؤثرة في الأدب وفنونه البيئة بنوعيها:

(١) فأما البيئة الطبيعية فأثرها بين فيما نراه في فنون الأدب من رقة أو ضخامة، وشدة أو لين، وسهولة أو تعقيد، فللصحراء وهدوئها، ومناظرها

الشاسعة، وفضائها الممتد إلى السماء — مايبعث المعانى الفطرية، ويوحى بالعواطف الهادئة، وللخصب والنماء والحدائق الغناء والبساتين والأزهار والأنهار مايبعث المرح ويثير الإعجاب بجميل المظاهر ونضارة الطبيعة، وللجبال الشامخة التى تطاول بغواربها أعنان السماء من الأثر ماليس للسهول المنبسطة والوديان المخضرة.

لكل هذه المظاهر الطبيعية آثارها فى النفوس، وفيما تجود به القرائح من نثر ونظم، وإنا لنلمح هذا الأثر فى شعر البدو وفى شعر الحضر، وفى شعراء الصحراء وشعراء الحواضر الزاهية بالمخضر من الأشجار والجارى من الأنهار.

(ب) وأما البيئة الاجتماعية فمرجعها إلى ما للأمة من نظام فى حياتها العامة وفى حياتها المنزلية، وإلى حظها من الحرية، ومانميل إليه من ألوان المسرات والملاهى، وإلى ماهنالك من مجتمعات وأندية لشتى أنواع النشاط، ودور للتمثيل أو الغناء أو الموسيقى، وحفلات أو شعائر فى أعيادها ومواسمها، كل أولئك له فى حياة الأمة واتجاهها العقلى وإنتاجها الأدبى أثر.

***

وبعد فهذه جولة سريعة فى العوامل التى تتحكم فى أنواع الأدب وتوجه فنونه. ولعلى أعود إلى الموضوع فى فرصة أخرى إن شاء الله لتعزيزه بأمثلة من الأدب العربى تفصل مجمله، وتزيده وضوحا؟

عبد الحميد حسن